**ملكة الاستماع عند ابن خلدون**

حظيت مهارة الاستماع باهتمام كبير خلال السنوات الأخيرة، عكس ما كانت عليه سابقا، وقد أكد ابن خلدون أهمية هذه المهارة حين قال "السمع أبو الملكات". وتكاد نظريات اكتساب اللغة تجمع على ضرورة الاهتمام بمهارة الاستماع باعتبارها أهم المهارات في اكتساب وتعلم اللغات.

تعريف الملكة:

الملكة في اللغة صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة.

أما في الاصطلاح فهي صفة تتحقق للشخص بالاكتساب أو بالموهبة؛ أي أن اكتسابها إما أن يتحقق – على رأي بعضهم - بالإحاطة بمبادئ العلم الذي يجري تعلّمه والإحاطة بقوانينه وقواعده وآليات تداوله، أو أن الملكة – على رأي آخرين - هبة مورثة لا تكتسب ولا تُعلَّم، فمن وهبه الله ملكة الحفظ كان حافظا ومن وهبه الله ملكة التخيل كان شاعرا، وهكذا...

والحقيقة أن الملكة تجمع بين الأمرين فهي هبة من الله تعالى يتفاوت فيها البشر، غير أنها من جهة أخرى تنمو وتزداد بالاكتساب والرعاية والعناية والمتابعة؛ ودليل ذلك أنها قد تزول لدى البعض كما قد تنمو وتتطور لدى آخرين.. وهذا يجعلنا نخلص إلى أن ثمة نوعين من الملكة فطرية ومكتسبة.

ويتفرع عن هذين القسمين الرئيسيين (الملكة الفطرية والمكتسبة) إلى عدة ملكات أخرى عند ابن خلدون، يتحدد نوع كل منها وطبيعته بحسب الموضوع الذي تندرج فيه، فهناك الملكة اللغوية والملكة الفقهية والملكة النحوية والملكة البيانية والملكة الموسيقية والملكة الخطابية والملكة الشعرية...

علما أن ابن خلدون يستعمل مصطلح الملكة (في مجال اللغة) كمقابل لمصطلح المهارة، كما نجده يستعمل مصطلح الملكة مقابلا ً للذوق (في مجال علم البيان / الأدب) .

الملكة عند ابن خلدون:

إن الملكة صفة راسخة في النفس كالنبتة التي تظهر في الأرض صغيرة محدودة، ثم تنمو وتتجذر بالرعاية والعناية والمتابعة، والملكة أنواع كثيرة تتنوع بتنوع العلوم والفنون التي يتعلمها الإنسان، وهي كلّها تكتسب وتترسخ عن طريق مداومة السمع والحفظ وكثرة الدربة والمران.

وهذا مذهب ابن خلدون الذي ضارع فيه ما توصلت إليه النظريات المعاصرة في المجال التعليمي. حيث يقول: "والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأنّ الفعل يقع أولاً وتعود منه للّذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة، ثم يزيد التّكرار فتكون مَلَكَة أيّ صفةٌ راسخةٌ" (ابن خلدون،2004، ص574).  
 إذ تأملنا في تعريف ابن خلدون للمَلَكَة؛ وجدنا أنّه ركّز على عمليّة التّكرار في تحقيقها؛ لذا عرّفها بأنّها صفة راسخة يكتسبها الإنسان عن طريق التّعلّم  أيّ لا يمكن أنْ تتحقق المَلَكَة لدى الفرد إلا عن طريق التّعلّم والتّكرار، لذا يرى ابن خلدون أن اللّغات جميعها ملكات شبيهة بالصّناعة، أي أنّ اللغة تُكتسب بالتّعلّم، والمَلَكَة عنده مهارة ثابتة تُكتسب عن طريق التّعلّم، كصناعة الخِياطة، والنّجارة، والحِدادة.  
 وقد فرق ابن خلدون بين المصطلحين - صناعة اللّغة العربيّة ومَلَكَة اللّغة العربيّة-، فمعنى صناعة العربيّة أنْ يمتلك المتعلم قوانين اللّغة من إعرابٍ ونحوهِ، وأنْ يحفظ كلام العرب، لكن دون تطبيق ذلك في كلامه، فهذه لا تسمى عنده مَلَكَة بلّ صِناعة، وحين يستخدم المتعلم المحفوظ والمفهوم، فهو عندئذ يملك المَلَكَة اللّغويّة،  وضّح ابن خلدون شرح الفرق بين الصّناعة والمَلَكَة بالتّمثيل بمثال حسيّ، إذ اعتبر من لا يستخدم اللّغة وهو يعرف قوانينها كمن يعرف قوانين الخياطة والنّجارة معرفة نظريّة فيصف ما ينبغي القيام به في الصّناعتيّن، لكن إذا طُلب منه أن يُطبق معرفته النّظريّة يعجز عن تطبيقها .  
 من المنطلق السّابق قدّم لنا ابن خلدون في مقدّمته القاعدة الأساسيّة في تحقيق المَلَكَة اللّسانيّة، وتعلّم اللّسان العربيّ، وهي الاستماع بقوله: " فالمتكلم من العرب حين كانت مَلَكَته اللّغة العربيّة موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفيّة تعبيرهم عن مقاصدهم؛ كما يسمعُ الصّبيُّ استعمال المفردات في معانيها... ثمّ لا يزالُ سماعهم يتجدد في كلّ لحظةٍ..." (ابن خلدون،2004، ص574).

طبيعة الملكـة عند ابن خلدون على ضوء اللسانيات الحديثة:

إن طبيعة الملكة عند ابن خلدون ّإنما تتحقق بكثرة الدربة والمران ومعاودة الممارسة، إلى أن ترسخ وتستحكم لدى المتعلّم المواظب عليها وأما ما تقوم عليه الملَكة في المقام الأول كما يرى ابن خلدون فهو الحاسة السمعية... وأهم مظهر تتجلى فيه الملكة هو المظهر الصوتي، لذلك ربطها بالسمع، إذ يقول: "والسمع أبو الملكات اللسانية."

فهو يركز على الحاسة السمعية في تعلّم اللغة إذ يقول - مشيرا إلى تغير ملكة العرب بسبب توسعهم واختلاطهم ببقية الشعوب من العجم -: "... فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع. وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه.."

وكانت ملكة اللغة العربية تكتسب طبيعياً بالسماع**،** حين كان المتكلم ينشأ في وسط لغوي كله عربية فصحى، فلا يحتاج إلى أن يتعلمها على يد معلم، وبهذا فسّر القول الشائع بأن اللغة العربية طبع في العرب. لكن هذه الملكة فسدت بسبب اختلاط العرب بالعجم، لذلك لم يعد السماع وسيلة كافية لتعلم اللغة الفصحى.